إيجين بي
سيمارو أميدار

د/ بيماراو أمبيدكار .... رائد حقوق الإنسان في الهند و واضع الدستور الهندي

بقلم :

إيجين بي

ترجمة :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٢٢م

الفصل الأول

ميلاده

في الرابع عشر من إبريل عام ١٨٩١م أنجبت زوجة العريف رامجيروا ملوجي السيدة بيمباباي مولودهما الأخير من ١٤ طفلا مات منهم عشرة أطفال مقابل أربعة أخرين ظلوا على قيد الحياة حيث كان والدهم ضابطا في الجيش البريطاني في الهند خلال إحتلالهم لها منذ عام ١٨٦١م يخدم في قاعدتهم العسكرية في مدينة ماهو بولاية ماديا برادش قادما من مسقط رأسه بقرية نائية في مقاطعة راتنجيري بولاية مهارشترا تدعى أمبفادي حيث ينتمي إلى طبقة محتقرة إجتماعيا تدعى طبقة المنبوذين إمتاز أفرادها بروحهم القتالية الشجاعة و مواهبهم العسكرية في خوض الحروب و المعارك و لا سيما الحروب التي إنتصروا فيها لصالح مملكتي شيفاجي و بيشواس ، علاوة على إنهم قاتلوا في صفوف الجيش البريطاني خلال الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) و الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) و نالوا على إثر ذلك العديد من الميداليات و النياشين و الأوسمة الخاصة بنوط الشجاعة ، كما أنهم أيضا حاربوا في صفوف الجيش الهندي بعد نيل بلادهم إستقلالها عن بريطانيا عام ١٩٤٧م في

معاركه المصيرية داخل البلاد و خارجها ، إلا أنهم يعيشون حياة بائسة و مريرة للغاية حيث كانوا يقبعون في أسفل السلم الطبقي في المجتمع الهندوسي بينما طبقة البراهمة التي تحتقرهم و تحقد عليهم حقدا دفينا لأنهم يجرون الأبقار الميتة و يحملونها على ظهورهم عكسهم تماما تتربع على عرشه العنصري بإعتبارهم مصدر الحياة المقدس لهم و لديانتهم الهندوسية ، فلا يحق لهم جلب الماء من الينابيع و البحيرات و منعهم من دخول المعابد و الإلتحاق بالمدارس أو لمس أفراد طبقة البراهمة و الطبقات العليا وصلت إلى حد عدم ملامسة ظل واحد منهم لظل واحد من طبقة الأول حتى و لو من دون قصد ، كما يتعرضون للضرب و الصفع و الشتائم و إساءة المعاملة و القمع الوحشي من قبل البراهمة دون وجه حق و لأتفه الأسباب و في أي وقت يحلو لهم دون أن يردوا عليهم و لو بأدنى شفة طوال عمرهم .

إحتفلت عائلته و أقاربه كالعادة بمولوده الجديد الذي أطلق عليه إسم بيماراوا ، و مثل معظم أقاربه حلت بركة الآلهة بيفا عليه عندما رأى والده ضوء القمر الساطع يلقي بظلاله البهية على وجه ابنه الصغير حتى حرك منظره المياه الراكدة داخل عقله المثخن بالهموم و الجراح و هو يفكر بأعباء تربيته و

تعليمه اللذين سيمنحانه المكانة المرموقة و رغد العيش و بعض الإحترام (هل بركة الآلهة بيفا التي حلت عليه ستحميه من حياة الرعب التي نحياها ؟ مستحيل)

و مثل العديد من إخوانه المنبوذين التحق رامجيروا بالجيش لنفس الأسباب حيث حمتهم من القمع الإرهاب التي يتعرضون لها من قبل طبقة البراهمة في حياتهم اليومية كجر الأبقار الميتة و شتمهم و ضربهم و صفعهم و معاملتهم معاملة سيئة أسوأ من الحيوان ، إلا أن المستعمرين البريطانيين توقفوا عن ضم المزيد منهم إلى صفوف جيشهم النظامي ما تسبب هذا التصرف اللامسئول في خلق حالة اضطراب سيئة داخل المؤسسة العسكرية نفسها حيث رفض الضباط المنتمين لطبقة البراهمة الوقوف إلى جانب زملائهم المنبوذين الذين لم يعد أحد من الجنود الواقعين تحت إمرتهم يطيعون اوامرهم العليا كما في السابق ما دفع العريف رامجيروا إلى مناشدة الضباط الكبار الأعلى منه رتبة ضد هذا القرار و إلغائه على الفور .

و بعد مرور عام واحد فقط على ميلاد بيماراوا ، تقاعد والده بعد ١٥ عاما فقط قضاها في السلك العسكري ، فانتقل مع عائلته إلى بلدة صغيرة خاصة برجال الدولة المتقاعدين من

طبقة المنبوذين تقع في مقاطعة راتناجيري تدعى داهبلوي حيث نشأ بيماراوا و ترعرع فيها مع أقرانه المنبوذين و تسلق معهم الأشجار كالقرود مثلهم و عاش طفولة سعيدة هناك ، لكن والده كان قلقا للغاية بشأن عائلته الكبيرة التي تعتاش من مرتبه الضئيل الذي لا يسد الرمق و دون أن يدخر جزءا منه أثناء عمله في الجيش للإنفاق عليها طوال حياته ، و لا سيما فيما يتعلق بتعليم إبنه الصغير بيماراوا حيث لا توجد مدارس داخل بلدة داهبلوي إلا في المنطقة المحيطة بها و التي لا يسكنها سوى أفراد طبقة البراهمة ، بمعنى آخر أنه لو أراد الإلتحاق بواحدة منهن فسيتم طرده على الفور من قبل القائمين عليها لمجرد إنتمائه لطبقة المنبوذين المكروهة من طرفهم كرها شديدا لا يطاق مدركا في قرارة نفسه بأن ولده سيظل أميا أبد الدهر لو مكث هنا طوال عمره ، فقرر الرحيل إلى بومباي و إستأجر مع عائلته العريضة في غرفة متواضعة بإحدى العشوائيات المكتظة بالمنبوذين أمثالهم و إستغل علاقاته الوثيقة بكبار الضباط خلال عمله السابق في الجيش للحصول على وظيفة حارس شخصي لأحد القادة العسكريين في مدينة ساتارا حيث سرعان ما إنتقل و أسرته إليها للعيش و السكن فيها .

الفصل الثاني

دراسته

زار رامجيـــروا العديـــد مـــن المـــدارس فـــي ســـاتارا و المنـــاطق المرتبطـــة ســـاعيا وراء إقنـــاع مـــدرائهن بضـــم ابنـــه بيمـــاراوا إلـــى صـــفوف واحـــدة مـــنهن و لكـــن دون جـــدوى ، فمـــا مـــن مدرســـة مـــن اللائـــي زارهـــن وافقـــن علـــى ضـــم بيمـــاراوا إليهـــا خوفـــا مـــن غضـــب طبقـــة البراهمـــة الـــذين يشـــكلون ٩٥% مـــن طلابهـــا الأساســـيين ليعود إلى منزله بخفي حنين .

لكنـــه لـــم يفقـــد الأمـــل متـــنقلا مـــن مدرســـة إلـــى أخـــرى حتـــى حالفـــه الحـــظ أخيـــرا عنـــدما وافـــق مـــدير براهمـــي طيـــب القلـــب علـــى التحـــاق إبنـــه الصـــغير إلـــى مدرســـته (حضـــرة العريـــف ، لقـــد وافقنـــا علـــى إلتحـــاق إبنـــك بمدرســـتنا شـــريطة إلتزامـــه بـــبعض الشـــروط الخاصة بها)

(ما هي يا سيدي ؟)

(لا يلمـــس أي شـــخص فيهـــا و لا يجلـــس بجـــوار أحـــد مـــن زملائـــه حيث يواصل دراسته على الأرض بالقرب من باب الصف)

سرعان ما امتقع لون رامجيرو عند سماعه ذلك (لكن سيدي ، كيف سيتقبل ولدي الصغير هذا .....)

(رامجيرو ، أعرف جيدا أنه من الصعب على ولدك تقبل تلكم الشروط المذكورة سلفا ، حاول أن تفهمه ذلك الأمر ، لا أريد أية مشاكل مع أولياء أمور الطلبة المنتمين لطبقة البراهمة ، عليه أن يهتم بدراسته فحسب)

شكر رامجيرو المدير على ضم ولده إلى مدرسته عائدا إلى منزله و القلق يرتسم على محياه من شدة تفكيره المتواصل حول كيفية إقناع إبنه بيماراوا بالوضع القاسي الذي سيعانيه خلال تحصيله الدراسي هناك جراء إنتمائه الطبقي حيث أخبره بجدوى مواصلة تعليمه هناك دون الإكتراث بالظروف القاهرة المحيطة به و شروطها الظالمة المفروضة عليه فيها .

نفذ بيماراوا ما طلب منه و جلس على الأرض بمحاذاة باب الفصل و مقابل زملائه الجالسين على كراسيهم دون أن يستوعب مليا لما يعامل بهذه الطريقة المستهجنة بالنسبة له .

في ساتارا ، إستأجر رامجيرو غرفة في مستعمرة خاصة برجال الدولة المتقاعدين من طبقة المنبوذين لأفراد عائلته الكبيرة حيث ظل بيماراوا مقيما هناك فترة طويلة لم يعرف خلالها

سوى مصادقة أولاد و بنات ينحدرون من طبقته الإجتماعية فقط دون زيادة أو نقصان ، بينما نظرائه الآخرون من طبقة البراهمة ظلوا بعيدين عنه يتجنبونه و يرفضون ملامسته أو مصافحته كما لو أنه مصاب بالطاعون أو الجرب و يخافون أن يعديهم به حيث وصفه أحدهم بالصعلوك الجربان و بصق في وجهه دون حياء أو خجل !

جعلته هذه المعاملة السيئة التي تعرض لها يدرك جليا معنى إنتمائه لطبقة المنبوذين حيث يعتبرونه أسوأ من كلب ضال ، مما ترك جرحا غائرا في قلبه لم يندمل بعد ، فتعاطف بعض الأساتذة معه دون أن يحركوا ساكنا من أجله ، فنصحه والده بنسيان كل ما سبق و التركيز على دراسته فحسب .

و في يوم من الأيام مدح الأستاذ تلميذه النجيب بيماراوا أمام زملائه على جده و إجتهاده و تفوقه عليهم في تحصيله العلمي و طلب منه أن يرسم مثلثا على اللوح الأسود (السبورة) ، و ما إن بدأ يقترب منها حتى تعالت صيحات زملائه فجأة الغاضبين و اندفعوا نحوه بوجوهم المملؤة رعبا و غضبا محذرين إياه بعدم الإقتراب من اللوح الأسود قيد أنملة ما أثار إستغراب أستاذهم و إستهجانه الحاد من تصرفهم المشين نحوه (لماذا ؟)

(نحن يا أستاذ نحتفظ بصناديق غدائنا أسفل اللوح الأسود ، فلو إقترب بيماراوا المنبوذ منها فستحل عليها اللعنة و تصيبها النجاسة ، لذا يجب إزالتها من مكانها قبل أن يقترب منها و يرسم المثلث على اللوح الأسود)

هجموا على اللوح الأسود هجوم الحرس بغية أخذ أطعمتهم من مكانها بسرعة البرق قبل إقتراب بيماراوا المرعوب و المندهش منها حيث ظل المسكين واقفا في مكانه يعتصر قلبه الألم و يشعر بالأسى و الحزن العميق حيال ما رأه للتو .

لاحقا ، ربت الأستاذ على ظهره للتهوين عليه ناصحا إياه بتناسي هذه الحوادث و التصرفات الفردية الموجعة لقلبه المرهف الحساس إلى الأبد و إعتبارها من الماضي كان شيئا لم يكن حتى يتمكن من العيش في سلام .

في تلك الأونة ، توفيت والدته فجأة منتصف الليل بعدما بلغت من العمر عتيا ما اضطر والده للعودة متأخرا من عمله إلى المنزل ليطبخ الطعام لأبنائه .

بدأ بيماراوا منذ الصباح الباكر بتناول ما تبقى من طعام العشاء قبيل ذهابه إلى المدرسة ، فلقد أضحى أكثر إحتياجا للطعام جراء نمو جسده المتسارع لدرجة أنه بكى بكاء شديدا وقت

الغـداء مـن شـدة الجـوع قبـل أن تجـف دموعـه البريئـة عنـد مجيـئ والـده متـأخرا كعادتـه مـن العمـل ليطـبخ لهـم فـي المسـاء و شخصـا لا يطـاق فـي شـكواه الدائمـة لوالـده عـن مشـاكله اليوميـة رغـم تفهـم الأخيـر لمـا يعانيـه ، فطلـب منـه عنـد وصـوله للمنـزل قادمـا مـن المدرسـة وقـت الغـداء بتنـاول أي شـئ فـي المطـبخ لأن عمتـه فـي تلـك الأثنـاء معتـادة علـى طـبخ طعـام الغـداء لغيـره مـن أطفال السكن العشوائي طوال اليوم .

منـذ ذلـك الحـين إعتـاد بيمـاراوا يوميـا علـى الـركض مسـرعا إلـى منزلـه خـلال إسـتراحة الغـداء لتنـاول طعامـه ثـم العـودة راكضـا إلـى المدرسـة البعيـدة عـن منزلـه بأميـال عـدة لدرجـة أنـه أضـحى يغيـب عـن حصـص مـا بعـد إسـتراحة الغـداء بإسـتمرار مـا دفـع أسـتاذه إلـى توبيخـه و تعنيفـه (لقـد أصـبحت مهمـلا لدروسـك أسـوأ مـن ذي قبل ، لماذا ؟!! أنا أحذرك ، إن لم .....)

لـم يتمالـك بيمـاراوا نفسـه مـن الإنفجـار باكيـا أمامـه شـارحا لـه مشـكلة الجـوع التـي يعـاني منهـا خـلال وجـوده فـي المدرسـة ، فـرق قلبـه للصـبي (بيمـاراوا ، مـن الآن فصـاعدا لـن تضـطر لتنـاول طعام الغداء في منزلك)

بـدأ أسـتاذه يحضـر معـه وجبـات و خضـروات إضـافية فـي حقيبـة طعامـه مـن أجـل أن يتناولهـا بيمـاراوا داخـل المدرسـة كـل يـوم ، و

مع مرور الوقت تعمقت مشاعر الألفة و المحبة بين الأول و تلميذه النجيب حيث حاول بلطفه و عطفه الزائدين حمايته من سيل الشتائم المنهمر من قبل زملائه على قلبه الرقيق ، و ذات يوم أقترح على بيماراوا إضافة لقب أمبيدكار إلى إسمه دون أن يغير تبنيه هذا اللقب بروحه السامية شيئا من سوء المعاملة التي مازال يتعرض لها من قبل مئات الأشخاص الأشرار ذوي الأفق الضيق أينما ذهب و أينما حل ، حتى أن الحلاق رفض أن يحلق شعره بعدما علم بأنه من المنبوذين ، فاضطر أن يحلقه عند شقيقته الكبيرة كالعادة رغم حلاقتها السيئة و عدم إمتلاكها الخبرة الكافية أو الذوق الرفيع في هذا المجال .

أحب منذ صغره سماع أغاني كبير خان الدينية بأسلوب بهاجان مع والده العريف المتقاعد في الجيش المولع للغاية بترديد أغاني فنه الديني الرفيع الزاخر بالمواعظ و الحكم الداعية للمساواة بين البشر و المحبة و اللطف و التسامح الديني بينهم حيث كانت الدروس المستفادة منها البلسم الشافي لروحيهما المثخنتين بالجراح من جراء إنتمائهما لطبقة المنبوذين .

و بعد إنتهائهم من الغناء كان بيماراوا يتساءل أحيانا في قرارة نفسه عن وجود مكان في الأرض يعامل فيها المنبوذين معاملة البشر المتساوين بمنتهى التقدير و الإحترام ؟

الفصل الثالث

سلام بومباي

في يوم من الأيام ، فكر بيماراوا بأكبر مدينة في البلاد ألا و هي بومباي مدينة الأحلام و الأثرياء و المتحضرين و المثقفين التي نادرا ما تجد منبوذا واحدا فيها آنذاك ، فاستقل القطار للسفر إليها حيث تقيم شقيقته الكبرى هناك ، و عند وصوله المحطة توجه إلى منزلها البعيد للغاية قاطعا مسافة طويلة فأصابه الإجهاد و التعب عند منتصف الطريق حيث وجد مقهى شعبيا هناك ، فطلب بصوت مفزوع كوبا من الشاي و جلس على المقعد ، لكن صاحب المقهى بدا قاسيا معه و شك في أمره صارخا بوجهه بمنتهى العنجية (من طبقة أنت ؟)

تلعثم بيماراوا في رده (م م م منبوذين !)

(منبوذين ؟!! أيها الحثالة !! كيف تجرؤ ....)

فصرخ في وجهه و إنهال عليه ضربا و رفسا و أزاحه من المقعد بعنف و أوقعه في البالوعة ليتلطخ بقذارتها (هذا ما تستحقه أيها المنبوذ القذر)

و لـولا إسـمه المسـتعار لمـا أخرجـوه مـن البالوعـة ، فسـرعان مـا قطـع تـذكرة العـودة إلـى موطنـه سـاتارا حيـث ظـل ينظـف نفسـه مـن قذارة البالوعة طوال الطريق .

و فـي إحـدى الأيـام ، إجتاحـت المجاعـة منـاطق الغوريغـان حيـث كـان العريـف رامجيـرو يعمـل فـي فـرق الإغاثـة العسـكرية مـع رئيسـه هنـاك تاركـا أطفالـه فـي سـاتارا بمفـردهم مـا دفـع شـوق و حنـين بيمـاراوا للقائـه علـى أحـر مـن الجمـر بعـدما طالـت مـدة غيابـه عنـه إلـى أن يرحـل ذات يـوم مـع شـقيقه و ابـن عمـه إلـى الغوريغـان عبـر القطـار ، و مـا إن علمـوا مكـان إقامتـه حتـى توجهـوا إليـه ، لكـن بعـد المسـافة و مشـاق الطريـق جعلهـم يقنعـون سـائق عربـة تجرهـا الثيـران أن يقلهـم إلـى حيـث وجهـتهم المتوافقة مع وجهته أيضا .

و بعـد إجتيـازهم نصـف المسـافة تجـاذب الأولاد أطـراف الحـديث بيـنهم بحماسـة مفرطـة و صـوت عـال جعلـت السـائق ينصـت إلـيهم بإمعـان شـديد قبـل أن يوقـف العربـة و يلتفـت نحـوهم بحـدة (يبـدو مـن هيئـتكم أنكـم مـن المنبـوذين ، ألـيس كذلك؟)

تجمـد الأولاد فـي مكـانهم و توقـف شـعر رأسـهم عـن الحركـة مـن شـدة الخـوف لدرجـة أن أحـدهم أومـأ رأسـه ردا عليـه بالإيجـاب ،

فثارت ثائرته عليهم (إنزلوا من عربتي أيها الأنجاس قبل أن تلطوخها بقذارتكم العفنة !)

نفذ الأولاد المرعوبين بجلدهم من شر غضبه و سوء معاملته لهم بعدما نزلوا من عربته الخشبية قاطعين بقية المسافة سيرا على الأقدام و قد أضحت أجسادهم تعاني من الهزال الشديد و يبكون بغزارة من شدة الجوع و العطش دون أن يتمكنوا من الإقتراب من أي بئر أو ينبوع ماء في طريقهم لإرواء ظمأهم خوفا من غضب البراهمة عليهم ، و ظلوا على المنوال إلى أن وصلوا مبتغاهم في اليوم التالي بعدما أضحوا في حالة يرثى لها حيث رأى رامجيرو يقتربون منه و قد بدوا له مجرد فزاعات تمشي على قدمين في الأرض بوجوهم المحترقة من جراء تعرضهم المستمر لأشعة الشمس و شفاهم اليابسة و جفونهم المسودة من شدة الجوع و العطش قبل أن يفتحصهم مليا و يكتشف أنهم أولاده الصغار ، فضمهم بين ذراعيه و عانقهم بحرارة لبرهة من الزمن .

و بعدما أكلوا و شربوا روى بيماراوا لوالده ما حدث لهم خلال رحلتهم الرهيبة إليه (بني ! آن الأوان أن تدرك أهمية التعليم بالنسبة لك ، أنه السبيل الوحيد لأخراجك من حياة البؤس و الشقاء التي تعانيها كمنبوذ ، تذكر هذا دائما)

و سعيا وراء العلم واجه بيماراوا كافة الشتائم و العقبات و العوائق التي تعترض طريقه المنشود بشجاعة نادرة ، و إجتاز إمتحان المعيار الرابع للغة الإنجليزية بنجاح عام ١٩٠٤م .

في غضون ذلك ، إستغنى القائد الرفيع المستوى عن خدمات والد بيماراوا كحارس شخصي له ليصبح هذا الأخير عاطلا عن العمل مرة أخرى و يضطر للإنتقال إلى بومباي و السكن المشترك مع عائلة أخرى في سكن داباك العشوائي بحي باريل بينما نجح هو في الإلتحاق بمدرسة الفينستون الحكومية العليا .

تزوج والده مجددا على الرغم من بلوغه العمر عتيا ، بداية لم يتقبل بيماراوا الأمر ، لكنه إضطر في النهاية على التكيف مع الوضع الجديد ، أثناء إرتقائه للصفوف العليا أضحى أكثر إنهماكا في الدراسة و التحصيل العلمي حيث كان يتوجه إلى حديقة شارع تشورني بعد إنتهاء الدوام الدراسي كل يوم لدراسة بعض الكتب و المناهج التعليمية الغير مقررة عليهم ، و خلال إنهماكه في مطالعتهن زاره كاتب و رجل دين ماراثي يدعى كيلسوكار غوروچي مصادفة و حدثه عن قصة الفتى المنبوذ في المجتمع الهندي و أشياء أخرى ليصبح منذ ذلك الحين صديقه و مرشده الروحي .

و في الأخير ، إلتحق بيماراوا بالجامعة بعد إجتيازه إمتحان القبول المؤهل بنجاح منقطع النظير عام ١٩٠٧م كأول منبوذ يحقق مثل هذا الإنجاز العظيم لدرجة أن سكان سكن داباك العشوائي و جلهم من المنبوذين خرجوا عن بكرة أبيهم لإستقباله إستقبالا حاشدا يليق بمقامه الرفيع ذاك .

و في عام ١٩٠٧م أيضا ، زوجه والده زواجا مبكرا من فتاة عمرها عشر سنوات تدعى رامباي ، و عاشت الأسرة على عائدات فندق رامجيرو التي لم تكن تسد الرمق دون أن تمنع الأخير من إلحاق إبنه بيماراوا بالجامعة و تحمل مصاريفها الباهظة .

أدرك كيلسوكار غوروچي حجم هذه المعضلة المادية ، فإصطحب صديقه بيماراوا إلى بلاط ملك بارودا سانياجيراوا غاوكواد خلال زيارته القصيرة لبومباي و قدمه له أفضل تقديم شارحا بإيجاز غير مخل مشكلته الأساسية (هكذا إذن ..... بيماراوا أمبيدكار ، هل تريد الدراسة في الجامعة ؟)

ركع بيماراوا أمامه (أجل يا مولاي ، فأنا رجل فقير من المنبوذين و إلتحاقي بالجامعة سيساعدني كثيرا و والدي غير قادر على تحمل أعبائها المالية)

تأثر الملك بكلامه و موهبته اللافتة للأنظار (هذا الفتى المنبوذ يريد إكمال تعليمه .... رائع ! نحن بحاجة لأمثالك من المتعلمين ، أنا معجب بروحك التواقة للعلم ، لذا سأعطيك عشرون روبية كل شهر من خزانة بارودا العامة لتمويل مصاريفك الدراسية ، أدرس بجد يا بيماراوا أمبيكار)

طار بيماراوا من الفرح معبرا عن شكره و إمتنانه للملك و مشاعره النبيلة نحوه ، و هنأه صديقه كيلسوكار غوروچي على حصوله للمنحة الحكومية المقدمة من جلالته لإكمال تعليمه الجامعي .

التحق بيماراوا بكلية الفنستون في الثالث من يناير عام ١٩٠٨م و التي تعد مغموره لدى معظم الناس في بلده نظرا لكونها كلية جامعية حكومية و مدرسوها من الأجانب أو الهنود المتخرجين حديثا منها و معظمهم من الأثرياء و طبقة البراهمة ، كان يجيد اللغتين الإنجليزية و الفارسية بطلاقة ما أثار إعجاب إستاذيه هينس و مستر موللر الذي كان يعيره ملابسه الخاصة ، و شيئا فشيئا صار محبوبا لدى أساتذة الكلية بأسرها بفضل جده و إجتهاده و دماثة أخلاقه حيث حافظ على تفوقه العلمي هناك إلى أن تخرج منها بتقدير إمتياز محتلا المرتبة الثالثة على دفعته .

و علـــى الـــرغم مـــن الضـــغوط الماليـــة المتراكمـــة علـــى والـــده لتلبيـــة مصـــاريفه الدراســـية إلا أن جهـــوده لـــم تضـــع هبـــاء و أثمـــرت فـــي تفوقـــه الدراســـي علـــى أقرانـــه و زملائـــه ممـــا زاده إعجابـــا و فخـــرا بـــه و مباهيا الأمم بنبوغه العلمي .

الفصل الرابع

وفاة والده

و ما إن نال بيماراوا شهادة البكالوريا حتى بدأت صحة والده بالتدهور بعدما إزدادت أوضاع عائلته المعيشية سوءا و لم يعودوا يجدون ما يسدون به رمقهم ، و مع ذلك ألح الأخير عليه إلحاحا شديدا بمواصلة دراساته العليا مهما كانت الظروف .

لكنه لم يشأ أن يثقل كاهل أبيه المريض بالإنفاق عليه ، فقرر الذهاب إلى مكتب الملك بارودا في بومباي بحثا عن عمل حيث كان معروفا لدى الجميع بحماية جلالته له ، و بعد كافة أشكال المعاملات و الإمتحانات الإدارية و المهنية أصبح ضابطا في جيش ولاية بارودا برتبة ملازم أول .

لم يمض على عمله الجديد فقط سوى خمسة عشر يوما حتى إستقبل برقية عاجلة مفادها بتدهور حالة والده الصحية أكثر من ذي قبل ، فإستقال من عمله و عاد مسرعا إلى بومباي ، لكن الموت لم يمهل العريف المتقاعد كي يلقي إبنه القلق النظرة الأخيرة عليه قبيل رحيله عن هذه الدنيا في العشرين من فبراير عام ١٩١٣م .

إثـر وفـاة والـده ، أصـبح المعيـل الوحيـد لعائلتـه مـا أدى إلـى زيـادة الأعبـاء الملقـاة علـى عاتقـه و الأوضـاع زادت سـوءا أكثـر مـن ذي قبـل و لا سـيما بعـدما خسـر عملـه دون أن يجـد بـديلا آخـر عنـه ، بـل إنـه لـم يـرد العـودة إلـى مملكـة بـارودا لأن مسـئولوا حكومتهـا لـم يكونـوا راضـين عـن إسـتقالته مـن العمـل فـي جيشـها النظـامي .

إضـطرب تفكيـره و أصـابه اليـأس قبـل أن يهـدئ كيلسـوكار غـوروچي مـن روعـه و يحثـه مـرارا و تكـرارا بـألا يفقـد الأمـل ، و ذات يـوم ، أخبـره بقـرار ملـك بـارودا إرسـال بعـض الطـلاب إلـى أمريكـا لإكمـال دراسـاتهم العليـا ، فتوسـط لـدى جلالتـه سـعيا وراء ضـم صـديقه إلـى تلـك البعثـة و لا سـيما و أن بيمـاراوا كـان مـن ضـمن قائمـة الممنـوعين مـن دخـول الـبلاط الملكـي ، لكـن كيلسـوكار غـوروچي أخبـره بقلـب الملـك الكبيـر و سـعة صـدره الحنـون و أنـه سيسـامحه علـى مـا بـدر منـه و يـتفهم مشـكلته .

توجـه بيمـاراوا نحـو ملـك بـارودا سـاياجيراوا غـايكوود أثنـاء زيارتـه الرسـمية لبومبـاي حيـث تعـرف عليـه جيـدا و سـأله (حسـنا حسـنا بيمـاراوا أمبيـدكار ! مـاذا تفعـل الآن ؟)

رد عليه بيماراوا بأن روى له عن تخرجه من المدرسة و حصوله على عمل كضابط في الجيش و عن إستقالته من العمل و وفاة والده المفاجئة معبرا عن رغبته الملحة بالسفر إلى أمريكا لإكمال دراسته العليا هناك .

عبر الملك عن عميق أسفه لوفاة والد بيماراوا قائلا (أنا آسف لسماع خبر وفاة والدك ، لذا لا جناح عليك إذا ما إستقلت من الجيش لهذا السبب ، قلت لي أنك متحمس للغاية كي تواصل دراساتك العليا إذن ؟ و هو كذلك ، سنرسلك إلى أمريكا ، قابل وزيري للتربية و التعليم و إستكمل معه الإجراءات لهذا الغرض)

إضطر بيماراوا للسفر إلى بارودا لملء الإستمارات و التوقيع على العقد و الذي بموجبه سيخدم ولاية بارودا بعد إكمال دراساته العليا لمدة عشرة أعوام على الأقل ، عاد إلى منزله و جهز أمتعته للمغادرة إلى أمريكا حيث توجت سفينته المبحرة من بومباي إلى نيويورك في الرابع من يونيو عام ١٩١٣م .

و في الثاني عشر من يوليو من نفس العام ، وطأت قدماه أرض نيويورك حيث لم يسمع قط خلال ثلاث سنوات قضاها الكلمات العنصرية المعتادة حول أصله و فصله و طبقته الإجتماعية !!

الفصل الخامس

في أمريكا

إلتحق بيماراوا بجامعة كولومبيا ، بداية مكث في فندق هارتلي هل ، ثم بعد ذلك عاش في ناد متعدد الأعراق مع بعض الطلاب الهنود الدارسين معه قبل أن ينتقل لاحقا إلى فندق ليفينغستون و يسكن في إحدى غرفها مع طالب هندي من أصل فارسي يدعى نافاد بهاتنا .

و للمرة الأولى في حياته يتنشق هواء الحرية دون أن يعايره أحد بأنه منبوذ أو يسأله عن طبقته الإجتماعية ، فالجميع هنا يعاملونه على قدم المساواة ، يأكل جميع زملائه طعام العشاء الذي يختارونه من نفس الأطباق الموجودة على طاولات مخصصة للمقصف في مائدة واحدة حيث عد شيئا جديدا عليه .

و بالرغم من جو الحرية المطلق في بلد العم سام إلا أنه لم يكن لديه الوقت و المال الكافي للأكل و الشرب و تدخين السجائر أو رؤية معالم المدينة و الإستمتاع بها حيث بالكاد ينفق دولارا واحدا على طعامه المكون من كوب من القهوة و قطعتين من الكعك و طبق من السمك أو السلطة و لا يأكل

أبـــدا إلا فـــي حالـــة شـــعوره بـــالجوع فقـــط ، و خـــارج أوقـــات الـــدوام الدراســـي يرســـل بعـــض النقـــود لزوجتـــه لتغطيـــة نفقاتهـــا اليوميـــة بعـــد إنجابها طفلين منه .

علـــى الـــرغم مـــن الوضـــع المتقشـــف الـــذي كـــان يعـــاني منـــه خـــلال منحتـــه الدراســـية إلا أن صـــحته النفســـية تحســـنت كثيـــرا بشـــكل درامـــاتيكي حيـــث يرجـــع ســـببه ربمـــا إلـــى الحريـــة الســـاحرة و المســـاواة و غيـــاب العنصـــرية الطبقيـــة داخـــل أمريكـــا ممـــا أثـــر إيجابـــا علـــى صـــحته الجســـمانية و بـــدا جســـده الهزيـــل قويـــا متخمـــا بالعضـــلات المفتولـــة كنـــا لـــو كـــان ملاكمـــا محترفـــا فـــي زمـــن قصـــير .

ســـأله الطـــلاب الأمريكيـــون عـــن ســـر صـــحة جســـمه الرائعـــة تلـــك فشـــرح لهـــم بـــأن مـــا حـــدث عائـــد إلـــى تمـــارين اليوغـــا التـــي كـــان يؤديهـــا بإنتظـــام مـــا دفعهـــم إلـــى تعلـــم قواعـــد اليوغـــا منـــه حيـــث سرعان ما تحولت غرفته إلى مركز تدريبي لها .

بمـــرور الوقـــت ، إســـتغرب زملائـــه مـــن مواظبتـــه الدائمـــة علـــى القـــراءة مـــا دفـــع زميلـــه نافـــال بهاتنـــا لنصـــحه (بيمـــاراو ، طـــوال الوقـــت عمـــل و دراســـة ؟ لمـــا لا تفكـــر بممارســـة اللعـــب و المـــرح وقت فراغك ؟!)

(لقد أتيت إلى أمريكا للدراسة و ليس للهزل ، فليس لدي وقت أم مال أضيعه سوى في الدراسة ، فالتعليم شئ أساسي بالنسبة لي)

و من أجل هدفه الوحيد هنا كان يوفر جزءا من مصروف جيبه لشراء الكتب من المكتبات المجاورة لهم .

علاوة على أن عقله تفتح كثيرا في كنف البيئة الصحية لجامعة كولومبيا ، فإجتاز إمتحانات كلية ثلاثة مستواها في الهند بنجاح ، و بدأ يكتب نظرياته و أبحاثه العلمية بوتيرة عالية ، و قد نال بحثه العلمي (إدارة و موارد شركة الهند الشرقية) درجة إم.إيه عام ١٩١٥م و نظريته (التصنيف الوطني في الهند .....) على درجة اف. دي من جامعة كولومبيا في العاشر من يونيو عام ١٩١٦م .

تعطشه المتزايد للمعرفة إلى تلقي المزيد منها على أساتذة جامعة كولومبيا الإجلاء كجون دويس و شوتويل و سينلغمان و روبنسون و فرانكلين و الكسندر و بادغر ..... الخ .

حاز تقدمه الأكاديمي على إعجاب طلاب و أساتذة كلية الآداب بجامعة كولومبيا ما دفعهم إلى عقد إجتماع خاص على شرفه و شوف إنجازاته العلمية في الساحة الأكاديمية .

الفصل السادس

مع لالا لاجبات راي

في تلك الأيام ، كان لالا لاجبات متواجد أيضا في أمريكا و سمع بالطالب الموعود بيماراوا أمبيدكار و صولاته و جولاته داخل حرم كولومبيا الجامعي و قرر المجئ إليه لمقابلته ، كان معجبا به للغاية ، لكنه حثه على العودة فورا (بيماراوا ، لابد أن تعود إلى الهند و تأخذ مكانك في حركة المقاومة و التحرر الوطني ضد المستعمر البريطاني ، الحركة بحاجة لأمثالك من الشباب المتحمس)

رغم إحترامه الشديد لرأي لالا لاجبات راي إلا أنه لم يوافق عليه حيث أنه غير قادر على توظيف علمه خارج هدفه الرئيسي الذي يصبو إليه (المنبوذين في الهند يخوضون حربهم الخاصة ضد طبقة البراهمة بدلا من حرب الإستقلال ، فهم إلى الآن لم يحصلوا على أبسط حقوقهم الإنسانية ، فلو أصبحت الهند دولة حرة فيجب أن تشمل حريتها المطلقة الطبقات المحتقرة إجتماعيا ، فالتعليم بالنسبة للمنبوذ هي معركته الحقيقية لنيل حريته ، بل إنها أهم من حركة تحرير الهند برمتها)

أدرك لالا لاجبات راي عمق معاناة المنبوذين في الهند و تفهم مشاعر بيماراوا الحساسة حول قضيتهم فلم يضغط عليه بطلبه السالف الذكر .

أمضى د/ بيماراوا أمبيدكار ثلاثة أعوام من عمر دراسته الأكاديمية التي قضاها في جامعة كولومبيا بتكوين مجموعته الخاصة من الكتب حيث إقتنى الآلاف من المصنفات بوسائل غير مشروعة و هرب المئات منها سرا إلى بومباي ، و قبيل رحيله عن أمريكا إلى لندن في يونيو من عام ١٩١٦م حمل ما تبقى منهن في حقائب سفره دون أن يأخذ حذره عند توجهه إلى بريطانيا لعدم إدراكه مليا في قرارة نفسه بأنها تختلف تماما عن أمريكا في تعاملها مع الهنود و لا سيما الشباب الثائر منهم لدورهم الرئيسي في إذكاءحركات التحرر و الثورات الوطنية ضد وجودها الإستعماري في الهند ما يجعلهم محط رقابة سلطاتها الرسمية الخانقة عليهم داخل أراضيها أو وطنهم على حد سواء ، سيما و أنه التقى بأحد أهم المنظرين الملهمين للثوار الشباب لالا لاجبات راي في أمريكا خلال دراسته الجامعية آنذاك ما دفع البريطانيين إلى وضعه ضمن قائمتها السوداء .

فحينما وطأت قدماه مطار هيثرو الدولي حتى أحاط ضباطها به من كل جانب و فتشوه و فتشوا كافة حقائبه تفتيشا دقيقا دون أن يعثروا على أي شئ يثير الشبهات ضده حيث لم يجدوا بين أمتعته سوى جواز سفره و بعض الوثائق الشخصية ليضطروا إلى إخلاء سبيله دون تردد يذكر .

التحق في شهر أكتوبر من عام ١٩١٦م بقسم غراي الداخلي في مدرسة لندن للإقتصاد و العلوم السياسية سعيا وراء دراسة القانون .

قبيل مغادرته أمريكا كان قد كتب رسالة عاجلة إلى مسئولي ولاية بارودا يحثهم على إرسال مخصصات منحته الدراسية الشهرية إلى لندن لتغطية مصاريف دراسته الجديدة خلال إقامته طوال عامين و نيف هناك ، فأثارت طلباته الغير مقبولة من طرفهم غضبهم و حقدهم الدفين و غيرتهم العميقة من حصول شخص منبوذ مثله على أعلى الشهادات الجامعية من أمريكا و بريطانيا بفضل رعاية ملكهم و كرمه الحاتمي له ، و لهذا السبب قرروا أن يتأمروا ضده ، فلفقوا رسالة مزورة صادرة من ملكهم دون علمه مفادها أنه قرر إيقاف صرف مخصصات منحته الدراسية نهائيا مطالبا إياه ترك دراسته و العودة إلى ولاية بارودا فورا و بلا تأخير .

صدم من محتوى الرسالة !! فبدون المال لن يتمكن من العيش و البقاء على قيد الحياة ، فاضطر للعودة إلى بلده تنفيذا لأوامر جلالته ، و قبيل مغادرته بريطانيا بعث كتبه إلى الهند على هيئة طرود بريدية عبر شركة توماس كوك للشحن البحري .

سافر بنفسه مع أحد أصدقائه عبر سيارته إلى فرنسا حتى مينائها المطل على المتوسط مرسيليا حيث أبحر من خلالها عبر سفينة قيصر الهند إلى بومباي حيث وصل ميناءها الرئيسي فيا كولمبو في الحادي و العشرين من أغسطس عام ١٩١٧م و الأخبار السيئة بإنتظاره هناك ، فالسفينة التي تحمل كتبه غرقت بأكملها في البحر قبيل إنتهاء الحرب العالمية الأولى .

بداية أراد الإلتحاق بالخدمة المدنية لدى حكومة ولاية بارودا ، لكن إفلاسه و فقر أسرته المدقع و حاجته الملحة للمال لشراء تذكرة السفر عبر السكك الحديدية و الإقامة في ولاية بارودا ريثما يرفع الحظر على راتبه العسكري و حاجة زوجته الشديدة للنقود من أجل شراء الطعام لأسرتهما أصابه بحالة من الإحباط الشديد و اليأس العارم ، ماذا عساه أن يفعل ؟

في تلك الأثناء ، تحدث معجزة تخرجه من هذه المحنة عندما قدم إليهم ساعي البريد حاملا معه مبلغا من المال قدره ألفي روبية مرسلة له من قبل شركة توماس كوك و أبنائه كتأمين على الأضرار و الخسائر التي أصابت طروده المحملة بكتبه عبر سفينتهم الغارقة ، فحل هذا المبلغ الكبير جميع مشاكله على الفور .

أرسل د/ أمبيدكار برقية إلى ملك بارودا تبلغه بوصوله إليه ، فإبتهج جلالته و إنفرجت أساريره بعدما أحيط علما من بين سطورها البليغة الموجزة بنبوغه الأكاديمي حيث أهداه أطروحاته العلمية بهذه الكلمات الموجزة المؤثرة لمساهماته الفعالة في إكمال تعليمه الجامعي ما دفعه إلى تبنيها و إستلام نسخا منها و إيداعها في ديوانه الملكي الذي طلب من رئيسه تعيين د/ بيماراو أمبيدكار كسكرتير عسكري لجلالة الملك بمرتب شهري قدره ألفي روبية (و كان هذا المبلغ يعد ثروة آنذاك) و أمر رجال دولته بإعادته من أمريكا و إستقباله في محطة قطار الولاية المركزية إستقبالا رسميا حافلا يليق بإنجازاته العلمية العظيمة ، و ما إن سمعوا أوامره الملكية السالفة الذكر حتى لاذوا بالصمت و أطاعوها دونما أي إعتراض !

الفصل السابع

ألعاب طبقية

لقد كان لدى مسئولي بارودا رأيا مغاير لرأي مولاهم في قرارة أنفسهم ، سيما و أنهم من طبقة البراهمة العليا و يستنكفون تنفيذ أوامره بالذهاب إلى محطة القطار لإستقبال شخص منبوذ أقل منهم مكانة و إحتراما في وسطهم الإجتماعي فما بالك لو كان من حملة الدكتوراة ؟

لم يجد بيماراوا أحدا في إستقباله ، فأكمل طريقه نحو القصر الملكي سيرا على الأقدام و قابل جلالة الملك الذي يكن حينها مستاء للغاية من تصرفات رجال دولته حياله ، فاستغرقا في الحديث بعض الوقت حيث أخبره جلالته عن منصبه الجديد .

في صباح اليوم التالي ، استلم منصبه الحكومي للتو ، فدخل عليه الحاجب مكتبه و رمى الملف إلى الطاولة من مسافة بعيدة ما أثار إستهجانه الحاد من تصرف حاجبه الأرعن (ويحك ! أهذه طريقتك في وضع الملفات على الطاولة ؟)

رد عليه بتهكم (آسف يا سيدي ، لا يمكنني الإقتراب منك لأنك منبوذ و أنا من البراهما)

أصيب بالدهشة من هذا الموقف ، فلقد بداوا يلعبون ألعابهم الطبقية القبيحة نحوه ، فتحكم بغضبه قائلا (هل تعلم يا هذا ما هو منصبي الوظيفي و مؤهلاتي العلمية ؟)

(أعلم أنك سكرتير قائد الجيش النظامي و حاصل على الدكتوراة في القانون ، لكن هذا لن يغير من الحقيقة في شئ بأنك ولدت منبوذا و ستظل طوال حياتك منتميا لطبقة المنبوذين)

(هل إنتماؤك الطبقي أهم من عملك بالنسبة لك ؟)

(نعم يا سيدي ، الإنتماء الطبقي بالنسبة لنا هو أهم شئ في الحياة لأنه من صنع إلهنا دارما الذي غرسه فينا جيلا إثر جيل ، فأرجوك يا سيدي لا تسلمني أي ملف بيديك ، يكفيك أن تضعه في إحدى زوايا طاولة مكتبك و أنا سأنتقيه بذراعي الممدودة إليه)

أدرك بيماراوا لاحقا بأن العقلية الهندية مثخنة بسموم العنصرية الطبقية أكثر مما يجب و أنه سيضطر إلى ترتيب أموره فيما يتعلق بإنتقاء ماء الشرب الخاص به بنفسه دون الإستعانة بحاجبه البتة ، كما أدرك أيضا بأن العمال المنتمين لطبقة البراهما أعتادوا على غسل مكتبه و كرسيه و طاولته و

متعلقاتهما بعد مغادرته إثر إنتهاء الدوام الرسمي كل مساء لتطهيرهم حسب زعمهم من بصماته و لمساته المنبوذة عليهم ..... و غيرها من التصرفات و الألعاب الطبقية التي أحالت حياته إلى جحيم لا يطاق و غير قادر على التكيف و القبول بهذا الوضع الشاذ بالنسبة له ، فآثر الإقامة في فندق باريس مع شقيقه الذي سانده طوال محنته السالفة الذكر .

لحظة وصوله إلى الفندق ذات مساء وجد حشدا غاضبا معاديا له ينتظره بالخارج يتوعده بالويل و الثبور و يطالب بإهدار دمه و من ضمنهم صاحب الفندق الفارسي الأصل الذي صرخ في وجهه من شدة الغيظ (أيها المخادع ! تقيم في فندقي طوال هذا الوقت دون أن أعلم قط بأنك من المنبوذين ؟)

فإنهالوا عليه و على أخيه ضربا بالهراوات و العصي الغليظة قبل أن ينفذا بجلديهما من شرهم بعدما أطلقا لساقيهما الريح حاملين حقائب سفرهما على ظهورهما دون أن يصيبوهما بأدنى ضرر و بحثا عن مأوى يقضيان ليلتهم في هذه المدينة و لكن دون جدوى ، فما من أحد من سكانها قبل بإستضافهما في داره ، حتى بنو قومهم من المنبوذين رفضوا إستقبالهما و المسلمون إشاحوا بوجههم عنهم رافضين

مساعدتهم و لو بشق تمرة ، ففقد الأخوان آخر أمل لديهم و أجبرهم الإعياء الشديد و تجمدهم من شدة البرد القارس على الإستراحة تحت شجرة عملاقة يستظلون بأغصانها الوارفة من عناء الطريق و ظلم الناس و البلاد عليهم ، فمسح بيماراوا وجهه من العرق شاكيا باكيا يخاطب الهند في قرارة نفسه (أماه ! أهكذا تعاملين أبنائك المتعلمين لمجرد إنتمائهم لطبقة المنبوذين ؟ ألهذا الحد المنبوذين لا قيمة لهم تذكر بالنسبة لك لأنهم من طبقة محتقرة إجتماعيا ؟)

في اليوم التالي ، أخبر بيماراوا جلالة الملك بمشكلته الذي بدوره إستشاط غضبا مما حدث للأول و طالبا من رئيس ديوانه الملكي حل مشكلته على وجه السرعة ، فشرح رئيس الديوان لجلالة الملك سببها بالتفصيل الممل ، و على ضوء تقرير ديوانه الملكي رد الملك عليه ردا بعث في نفسه الإمتعاض و اليأس (د/ بيماراوا ، مشكلتك أنك تعيش في برج عاجي بعيدا عن واقعنا الإجتماعي المرير ، فرجال دولتي مازالوا يقفون لك بالمرصاد لمجرد أنك من المنبوذين ، و لو وجدت لك غرفة خاصة لتقيم فيها سيسعون بكافة وسائلهم المشروعة و القذرة لطردك منها بأسرع وقت و ستصبح كبش

الفداء الذي سيضحون به أمام الناس إرضاء لغرورهم الطبقي ، واضح ؟)

أخذ مذكرة جلالته و غادر بارودا إلى بومباي ، و عندما علم كيلسوكار غوروچي ما جرى له هناك إتصل بأحد أصدقائه و هو مدير مدرسة يعيش في بارودا أن يستضيف بيماراوا في منزله مقابل مبلغ من المال يقوم بتسديده الأول من حر ماله ، فوافق الثاني على طلب صديقه و تعهد بإستقباله في محطة قطار بارودا ، و ما إن وصل د/ بيماراوا المحطة حتى تفأجأ بعدم حضوره البتة حيث حضر ساعي البريد عوضا عنه حاملا رسالة عاجلة منه له (آسف يا دكتور أمبيدكار ، لا يمكنني مساعدتك ، عندما علمت زوجتي بأنك من المنبوذين رفضت أن تقيم معنا)

لم يلبث بعد قراءة رسالته الموجعة للقلب أن عاد بومباي عبر نفس القطار الذي قدم إلى بارودا من خلاله حيث بعث بإستقالته من منصبه عبر البريد إلى جلالة الملك شارحا بين سطورها الأسباب التي دفعته لذلك .

الفصل الثامن

د/ بيماراوا - الأستاذ الجامعي

قرر أن يعيد النظر في أساليب معيشته اليومية حيث مارس التدريس و أسس شركة إستشارية قانونية بمشاركة بعض السماسرة ، لكن بمجرد ما أن أصبح معروفا لدى الناس بأنها تدار من قبل السماسرة المنبوذين حتى إنفضوا من حولها .

في تلك الأثناء ، سعى لنشر مقالاته و كتاباته العلمية و السياسية في الصحف المحلية و الأجنبية حيث إنتشر صداها في أرجاء المعمورة ، إضافة إلى حاجته الملحة للحصول على عمل يؤمن له مصروف الجيب ، فوقعت عيناه على إعلان وظيفة صادر عن كلية سايدنهام في بومباي ، فتقدم لها في الخامس من ديسمبر عام ١٩١٧م ضمن حشد غفير من المترشحين لنيلها قبل أن يتمكن من الحصول عليها بتوصيات من أستاذه في مدرسة لندن للإقتصاد د/ إيدفين الذي كان حاضرا حينها هناك .

عين أستاذا محاضرا لمادة الإقتصاد السياسي بفرعيها الثروة و المال من شهر نوفمبر عام ١٩١٨م بمرتب شهري قدره ٤٥٠ روبية (الفا دولار) ، بداية ، تحاشى الطلاب حضور

محاضـــراته و الإصـــغاء لـــه بســـبب أصـــوله الإجتماعيـــة المحتقـــرة قبـــل أن يعـــدلوا عـــن نظـــرتهم العنصـــرية تلـــك بعـــدما إنجـــذبوا تـــدريجيا إلـــى أســـلوبه الســـاحر و الرشـــيق فـــي التـــدريس و يمتـــدحون محاضـــراته الممتعـــة بأشـــد المـــدائح و يقبلـــون عليهـــا زرافـــات و وحدانا من كل حدب و صوب دون كلل أو ملل .

ذات يـــوم ، إعتـــرض أســـتاذ جـــامعي قـــادم مـــن ولايـــة غـــوجرات علـــى شـــربه المـــاء مـــن الإبريـــق الكـــائن فـــي غرفـــة الأســـاتذة ، مثـــل هـــذه الحـــوادث الفرديـــة زادت مـــن قناعتـــه بـــأن الكفـــاح فـــي ســـبيل قضـــيته العادلـــة يجـــب أن يشـــمل كافـــة أبنـــاء طبقتـــه مـــن المنبـــوذين كـــي يقفـــوا معـــه يـــدا واخـــدة فـــي الـــدفاع عـــن قضـــاياهم و رفـــع الظلـــم عـــنهم بكافـــة الســـبل ، فـــالتقى بـــأعظم مـــدافع عـــن قضـــايا الطبقـــات الـــدنيا شـــاهوجي كولابـــور المنحـــدر مـــن مقاطعـــة تشـــاترابا تي شـــيفاجي حيـــث نظـــم كلاهمـــا غـــداءات عمـــل جمعـــت علـــى مآدبهـــا المتواضـــعة كافـــة المنبـــوذين حولهمـــا لمناقشـــة قضـــاياهم المصـــيرية معهم .

أدرك الآن أهميـــة إكمـــال مقرراتـــه الدراســـية فـــي لنـــدن التـــي تركهـــا دون إنهائهـــا إثـــر رحيلـــه المفـــاجئ مـــن بـــلاد الضـــباب كججخـــلال الحـــرب العالميـــة الأولـــى إلـــى الهنـــد حتـــى يصـــبح محـــام قـــادر علـــى الـــدفاع عـــن حقـــوق المنبـــوذين و تمثـــيلهم خيـــر تمثيـــل فـــي

المحافل السياسية و القضائية و التشريعية ، إدخر بعض المال الذي جناه من مرتبه الشهري كأستاذ جامعي خلال النصف الأول من السنة الدراسية الأولى و أكمل صديقه القديم بهاتنا و شاهوجي بقية المبلغ من حر مالهما ، بعد ذلك ، أبحر مسافرا إلى لندن خلال شهر يوليو من عام ١٩٢٠م .

في سبتمبر من عام ١٩٢٠م قام بجولة ميدانية خارج حرمه الجامعي لإجراء المزيد من الدراسات و الأبحاث العلمية الجادة حول مجال تخصصه شملت المكتبات العامة الذي قضى بالكاد فيها حوالي ١٢ ساعة لجمع المصادر و المراجع المطلوبة و من ثم عاد إلى مسكنه ليتفرغ بإعداد بحثه العلمي و نظرياته الجديدة المستنبطة منه دون أن يذوق طعم الأكل أو النوم ، وبدأت نقود منحته بالنفاذ ، فأرسل في طلب العون من ملك بارودا سایاجیراو ثانية ، فلبى جلالته طلبه على الفور بإعطائه منحة مالية جديدة .

عرف كل من البروفيسور إدفين كينين و هارولد لاسكي بمساعداتهم الجليلة له أثناء إقامته في لندن حيث نال درجة الدكتوراة عام ١٩٢٠م عن رسالته العلمية الموسومة (مشكلة الروبية) التي حصل بموجبها على لقب أستاذ كرسي في مجاله

، بعد ذلك إجتاز الإمتحان النهائي بنجاح و يصبح على إثره محام من الدرجة الأولى .

في شهر إبريل من عام ١٩٢٣م عاد إلى بومباي مرفوع الرأس و هو يحمل شهادته الجامعية في مجال المحاماة بعد صراع مرير خاضه من أجلها أمام أبناء جلدته .

الفصل التاسع

معاركه القضائية

بدأ مشواره القضائي و تطبيق نظرياته الجديدة في القانون المدني من خلال عمله في محكمة بومباي العليا في شهر يوليو من عام ١٩٢٣م ، و نظرا لكونه من المنبوذين رفض زملاؤه من محامي المحكمة المنتمين للطبقات العليا التعاون معه أو السماح بالترافع أمام قضاتها و قضاياهم الكبرى ، فأضطر آسفا لأخذ القضايا الصغيرة المنظورة أمام المحاكم الإبتدائية قبل أن تسنح فرصته الذهبية عندما رفع بعض المنتمين لطبقة البراهما دعوى قذف و تشهير ضد ثلاثة من الكتاب المنبوذين و هم باجدا و جيده و جوالكار لتأليفهم كتاب (أعداء الوطن) متهمين بين سطورها طبقة البراهما بتدمير وطنهم عبر نشرهم ثقافة العنصرية الطبقية بين أفراد المجتمع الهندوسي باسم الدين و حولتهم إلى أخوة أعداء يحقد بعضهم على الآخر كما يجري ضد الطبقات الدنيا و لا سيما طبقة المنبوذين الذين لا يعتبرونهم من البشر و يعاملونهم معاملة الحيوانات دون حياء أو خجل .

وافق على تولي قضيتهم و ترافع و دافع عنهم أمام المحكمة بثقة و ثبات مؤكدا لهيئتها الموقرة بأن ثلاثتهم لم يرتكبوا أي خطأ يذكر فيما كتبوه بل قالوا الحقيقة المرة عن الوضع المأساوي الذي يعيشه مجتمعهم بشفافية تامة ، فحكمت المحكمة لصالحهم و رفضت الدعوى المقدمة من خصومهم البراهما لتحوله هذه القضية التي ربحها إلى زعيم وطني و بطل قومي في نظر الطبقات الدنيا و المنبوذين يناضل من أجلهم و يدافع عن حقوقهم المشروعة و حقوق الإنسان بشراسة نادرة ، لذا عقدوا إجتماعا حاشدا على شرفه في كولابا خلال الفترة ما بين التاسع عشر و العشرين في شهر مارس من عام ١٩٢٦م حيث خرجوا عن بكرة أبيهم

لإستقباله إستقبالا حافلا بالشعارات الحماسية و آيات الترحيب و التبريكات حيث ألهب هذا الحشد العظيم حماسته للخطابة أمامهم (ينبغي عليكم أيها المنبوذين أن تتحدوا مع بعضكم البعض لأن إتحادكم يمنحكم القوة و الثبات في مواجهة أعدائكم من الطبقات العليا و المطالبة بحقوقكم المشروعة بصوت عال و إجبارهم على الإعتراف بأنكم بشر مثلهم لكم نفس الحقوق التي يتمتعون بها أيضا)

أســـس بعـــد ذلـــك حركـــة سياســـية إجتماعيـــة أســـمها (جمعيـــة المنبـــوذين التعاونيـــة) للـــدفاع عـــن حقـــوق المنبـــوذين و الطبقـــات الـــدنيا و رعـــايتهم و حمـــايتهم بكافـــة الوســـائل المشـــروعة داخـــل منـــاطق تواجـــدهم ســـرعان مـــا ذاع صـــيتها بيـــنهم ســـريان النـــار فـــي الهشيم .

أصـــدرت الســـلطات الإســـتعمارية فـــي الهنـــد بعـــض القـــوانين التـــي تمـــنح المنبـــوذين حقـــوقهم الإساســـية قبـــل أن تعطـــل معظمهـــا و تصـــبح بـــلا تـــأثير خوفـــا مـــن نقمـــة البراهمـــا و الطبقـــات العليـــا و غضـــبهم العـــارم نحـــوهم كمـــا حـــدث مـــع قضـــية بركـــة تشـــافدار علـــى ســـبيل المثـــال حيـــث مـــررت اللجنـــة البلديـــة قـــرارا بتحويـــل هـــذه البركـــة الســـالفة الـــذكر إلـــى ينبـــوع عـــام كـــي يـــتمكن المنبـــوذين مـــن جلـــب الميـــاه منـــه لكـــن البراهمـــا و الطبقـــات العليـــا لـــم يســـمحوا بتطبيقه على أرض الواقع .

فـــي التاســـع عشـــر مـــن مـــارس عـــام ١٩٢٧م عقـــدت جمعيـــة الطبقـــات الـــدنيا إجتماعـــا حاشـــدا فـــي ماهـــاد حضـــره د/ أمبيـــدكار طـــالبوا فيـــه بممارســـة المنبـــوذين حقهـــم فـــي جلـــب الميـــاه العذبـــة مـــن بركـــة تشـــافدار ، فقـــاد مجموعـــة مـــنهم قوامهـــا خمســـة آلاف شخص إلى بركة تشافدار و شربوا من مياها العذبة .

لـــم يتـــأخر رد البراهمـــا و الطبقـــات العليـــا كثيـــرا ، فســـرعان مـــا هـــاجم بعضـــا مـــنهم أحـــدى خيـــام المنبـــوذين التـــي تقـــدم لهـــم وجبـــات الطعـــام هنـــاك ، فـــدعا د/ أمبيـــدكار النـــاس إلـــى التمســـك بأمـــاكنهم عنـــد البركـــة قـــد المســـتطاع و يـــدافعوا عـــنهم ضـــد إعتـــداءات المهـــاجمين ليظلـــوا علـــى هـــذا الحـــال حتـــى قـــدوم الشـــرطة إلـــى المكـــان و إعتقالهـــا الجنـــاة ، فلقـــد بـــدأ المنبـــوذون يطـــالبون بحقـــوقهم المشـــروعة دون أن يخشـــوا فـــي الحـــق لومـــة لائم .

فـــي شـــهر فبرايـــر مـــن عـــام ١٩٢٨م وصـــلت إلـــى الهنـــد لجنـــة ســـيمون لإقتراحهـــا بعـــض الإصـــلاحات الجذريـــة علـــى الســـلطات الإســـتعمارية هنـــاك حيـــث قـــاطع حـــزب المـــؤتمر جلســـاتها تمامـــا لعـــدم وجـــود أي هنـــدي مـــن بـــين أعضـــائها و قابلهـــا بـــالأعلام الســـوداء و الشـــعارات المكتوبـــة عليهـــا (إرحـــل يـــا ســـيمون) ، لكـــن المنبـــوذين تعـــاونوا معهـــا و عرضـــوا عليهـــا مطـــالبهم أيضـــا عـــن طريـــق نـــاطقهم الرســـمي و رئـــيس جمعيـــة المنبـــوذين التعاونيـــة د/ أمبيـــدكار حيـــث قابـــل أعضـــاء اللجنـــة المـــذكورة ســـلفا عارضـــا علـــيهم لائحـــة مطالـــب أبنـــاء جلدتـــه عبـــر مســـودة إضـــافية مـــن ٦٠ صـــفحة بهـــذا الخصـــوص فـــي شـــهر مـــايو مـــن عـــام ١٩٢٨م و التـــي شـــملت إصـــلاحات فـــي التربيـــة و التعلـــيم و تخصـــيص ٢٢ مقعـــدا لهـــم فـــي

البرلمان و نصيبهم في المناصب الحكومية داخل الوزارات و الجيش و الشرطة ..... الخ .

و بالرغم من معارضة بقية الزعماء الوطنيين له و إنتقاداتهم الجارحة لشخصه جراء توقيعه على تقرير لجنة سيمون إلا أن مذكرته القانونية حازت على إعجاب جميع المكونات الوطنية الشعبية .

في عام ١٩٣٠م ، عقد مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن برعاية جلالة الملك جورج الخامس (١٩١٠-١٩٣٥م) لصياغة دستور الإستقلال المتعلق بالهند كما وعد البريطانيون الهنود بمنحهم الحرية لبلادهم حيث حظي زعماء كافة الجماعات و الأحزاب السياسية بحقوقهم في عرض قضاياهم و مطالبهم العادلة ، و كان في المؤتمر لجنة للأقليات تستمع لمطالب الأقليات في الهند و قضاياهم ، و قبل أن تدلوا بدلوها حول الأقليات ، تحدث د/ أمبيدكار عن الوضع المأساوي الذي يعاني منه أبناء جلدته من المنبوذين و الطبقات الدنيا في بلده الهند مدعيا بأنه لم يطرأ أي تحسن يذكر على وضعهم الإجتماعي و حياتهم اليومية .

عندما عاد إلى بومباي إلتقى بغاندي الذي لم يكن معجبا بما قاله خلال مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن حيث يرى بأن

حـــزب المـــؤتمر قـــدم الكثيـــر مـــن أجـــل المنبـــوذين عكـــس الأول الذي يعتبر ما قدمه تافها لا يستحق الذكر .

حضـــر غانـــدي الجولـــة الثانيـــة مـــن مـــؤتمر الطاولـــة المســـتديرة و فـــي نفـــس الوقـــت عـــين د/ أمبيـــدكار عضـــوا فـــي مجلســـها المـــوقر أيضـــا ، و خـــلال حـــديثهما أمـــام لجـــان المـــؤتمر المختلفـــة تصـــاعدت حـــدة الخلافـــات بينهمـــا ، فعنـــدما حـــل دور الحـــديث عـــن الأقليـــات رفـــض غانـــدي القبـــول بـــد/ أمبيـــدكار كممثـــل رســـمي عـــن طبقـــة المنبـــوذين معتقـــدا فـــي قـــرارة نفســـه بـــأن حـــزب المـــؤتمر هـــو الممثـــل الوحيـــد عـــنهم ، و ردا عليـــه عـــاد إلـــى الهنـــد ، و هنـــاك عقـــد المنبـــوذين و الطبقـــات الـــدنيا آلاف الإجتماعـــات و التجمعـــات العريضـــة حيـــث صـــرحوا مـــن خلالهـــا بـــأن د/ أمبيـــدكار هـــو النـــاطق الرســـمي الوحيـــد بإســـمهم و معانـــاتهم المريـــرة بإعتبـــاره واحدا منهم .

فـــي الخـــامس مـــن نـــوفمبر عـــام ١٩٣١م ، عقـــد حفلـــة عشـــاء فـــاخرة برعايـــة الملـــك جـــورج الخـــامس علـــى شـــرف أعضـــاء مجلـــس مـــؤتمر الطاولـــة المســـتديرة حيـــث تحـــدث د/ أمبيـــدكار أمـــام الحضـــور عـــن الأوضـــاع المريـــرة التـــي يعـــاني منهـــا المنبـــوذين فـــي الهنـــد جعلـــت العديـــد مـــنهم يـــذرفون الـــدموع و يجشـــهون بالبكـــاء لدى سماعهم حديثه المؤثر حولهم .

جميع ملوك الهند كانوا حاضرين في مؤتمرات الطاولة المستديرة لدرجة أن سا ياجيراوا غاكوندا كان يشعر بالفخر و الإعتزاز بالدكتور أمبيدكار إفتخار الأب الحنون بإبنه البار ، و بعدما سافر إلى أمريكا و قضى شهر بأكمله هناك عاد د/ أمبيدكار مرفوع الرأس إلى وطنه و بطلا مكللا بالغار لدى إخوانه المنبوذين حيث إستقبلوه بالآف في المطار إستقبالا حافلا و رافقوا موكبه الحاشد خارج قاعة التشريفات حتى وصوله إلى ميدان بومباي في التاسع و العشرين من يناير عام ١٩٣٢م و إقامت حوالي ١١٤ منظمة تابعة لهم حفلات عشاء ساهرة على شرفه بعدما أضحى الناطق الرسمي بإسمهم لدى مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن التي قفل راجعا إليها في شهر يونيو من عام ١٩٣٢م لعرض المزيد من مطالبه الإجتماعية و السياسية التي قبلت بها الحكومة البريطانية و وافقت عليها تماما على لسان رئيس وزرائها عندما صرح بشكل رسمي بإعتبار الطبقات الدنيا و المنبوذين في الهند دائرة إنتخابية واحدة مستقلة من الآن فصاعدا .

في تلك الأثناء ، إعتقلت الحكومة البريطانية الزعيم غاندي و وضعته في سجن بونا ، فقرر الأخير أن يصوم عن الطعام و

الشـــراب حتـــى المـــوت داخـــل زنزانتـــه لإجبـــار البريطـــانيين عـــدم تأييد د/ أمبيدكار في مطالبه الإجتماعية و السياسية .

صـــام غانـــدي صـــيام المـــوت مـــا أدى إلـــى إنـــدلا ع الإضـــطرابات و الشـــغب فـــي أرجـــاء الـــبلاد ممـــا أوحـــى لـــلأول بـــأن مـــا حـــدث لعبـــة مـــدبرة مـــن قبـــل البريطـــانيين لـــزرع بـــذور الفتنـــة بـــين الهنـــدوس أنفســـهم و تـــدمير وحـــدتهم الوطنيـــة بأيـــديهم و إخـــراج المنبـــوذين مـــن مجـــتمعهم عبـــر نظـــام الكوتـــا الإنتخـــابي الـــذي تحفـــظ عليـــه رغـــم أنـــه يمـــنحهم كافـــة حقـــوقهم السياســـية و الإجتماعيـــة ، فعبـــر د/ أمبيـــدكار عـــن أســـفه مـــن موقـــف غانـــدي المتصـــلب حيـــال هـــذا الأمـــر و إنتقـــاده عبـــر تصـــريحاته المثيـــرة للجـــدل (لمـــاذا يعتبـــر غانـــدي حصـــول المنبـــوذين علـــى حقـــوقهم المشـــروعة خيانـــة ؟ لمـــاذا لا يريـــد لهـــم أن يســـعوا للمطالبـــة بحقـــوقهم المشـــروعة ؟ هل أخطأوا جميعا بمطالبتهم بذلك ؟)

و قـــد أدت تصـــريحاته فـــي تلـــك الآونـــة إلـــى تخلـــي زعمـــاء الـــبلاد المؤيـــدين لـــه و مطالبـــه المشـــروعة عنـــه حفاظـــا علـــى حيـــاة غانـــدي حيـــث مـــارس حشـــدا مـــن هـــؤلاء الزعمـــاء و علـــى رأســـهم أعضـــاء حـــزب المـــؤتمر مـــادان موهـــان مالفيـــا و كاســـوتا غانـــدي و ديفيـــداس غانـــدي ضـــغوطا شـــديدة عليـــه ســـعيا وراء ذلـــك رافعـــين شـــعارا موحـــدا أمامـــه يحاصـــرونه بـــه مـــن كافـــة الجهـــات بغيـــة إبتـــزازه

هـــاتفين بـــأعلى صـــوتهم (إنقـــذوا حيـــاة غانـــدي الغاليـــة) ، فإضـــطر مرغمـــا إلـــى مقابلـــة غانـــدي فـــي منزلـــه و وعـــده بعـــدم الإلتـــزام بنصـــوص ميثـــاق بـــوني جملـــة و تفصـــيلا ، فتغيـــرت معاملـــة الأخيـــر نحوه و اتسمت بقدر عال من المرونة .

عمـــل د/ أمبيـــدكار جاهـــدا مـــن أجـــل تحســـين أوضـــاع المنبـــوذين فـــي كـــل مكـــان طالبـــا مـــنهم بـــالتمرد علـــى العـــادات و التقاليـــد الباليـــة التـــي تكـــبلهم و تشـــوه ســـمعتهم أكثـــر فـــأكثر (لا تـــأكلوا الحيوانـــات الميتـــة ، لا تخضـــعوا للتمييـــز الطبقـــي ضـــدكم ، عيشـــوا بنظافـــة تامـــة فيمـــا بيـــنكم كمـــا يفعـــل البراهمـــا و الطبقـــات العليـــا ، لا تعتبروا أنفسكم أقل و أحط منهم بأي حال من الأحوال)

العديـــد مـــن المصـــلحين المنتمـــين لطبقـــة البراهمـــا كســـافاركار وقفـــوا إلـــى جانبـــه ، ففتحـــوا أبـــواب المعابـــد للمنبـــوذين ، لكنـــه كـــان يقلـــل مـــن شـــأن المعابـــد قبـــل دخـــولهم إليهـــا (لـــن تحصـــلوا منهـــا ســـوى علـــى القليـــل مـــن الحقـــوق ، حتـــى عنـــدما تســـعون لتعلـــيم أولادكـــم فيهـــا سيضـــعونهم فـــي الصـــفوف الخلفيـــة وراء زملائهـــم مـــن الطبقـــات العليـــا لتـــأمين حيـــاتهم مـــنهم ! ينبغـــي علـــى المنبـــوذين و الطبقـــات الـــدنيا أن يكـــافحوا هـــذه الأمـــور الخاطئـــة بكـــل مـــا أوتـــوا مـــن قـــوة و حـــزم حتـــى ينـــالوا حقـــوقهم كافـــة و يحظـــوا بـــإحترام الجميع لهم)

و في سبيل قضيته العادلة كتب العديد من المقالات اللاذعة في الصحف و المجلات و ألف الكتب القيمة دفاعا عنها و إيصال صوتها النبيل إلى أرجاء المعمورة قدر المستطاع ، و خلال نضاله الدؤوب في سبيل الدفاع عن أبناء جلدته المنبوذين تأثر بالديانة البوذية و إقترب و إستلهم فكره و عقيدته من مبادئها الروحية شيئا فشيئا عبر إطلاعه المتواصل بكتبها الدينية و لا سيما كتاب (وصايا بوذا) .

الفصل العاشر

الرحيل الأخير

فاز حزب العمال المستقلين الذي يرأسه بثلاثة عشرة مقعدا من أصل ١٧ من مقاعد برلمان ولاية بومباي في إنتخابات (١٩٣٥-١٩٣٦م) حيث أذهل منافسيه و على رأسهم حزب المؤتمر بإنتصاره الساحق آنذاك .

لكن زوجته رامباي ساءت حالتها الصحية أكثر من ذي قبل و هي التي ساندت زوجها طوال عمرها في مواجهة ظروفه الصعبة ، فما إن سافر إلى بريطانيا مجددا لإكمال دراسته حتى بعث قليلا من المال لتأمين مصروف الجيب لعائلته بعدما أضطر شقيقتها و شقيقها الصغيرين للعمل كعمال يوميين بعدما نفاذ آخر مصدر رزق لهما ، فكرست رامباي رعايتها و إهتمامها خلال فترة غيابه بوالدته و إبنها أيضا بتفان و إخلاص ، كما واجهت بشجاعة التهديدات الصادرة بحقهم من قبل الطبقات العليا إبان صيام غاندي ، إلا أن القدر لم يمهلها لتفارق الحياة في السابع و العشرين من مايو عام ١٩٣٥م ، فيضحى د/ أمبيدكار منكوبا حزينا بوفاتها أشد الحزن و الوجع يعتصره الألم بفقدانها إلى الأبد و هو الذي

خسر ولديه و إبنته الوحيدة من قبل حيث لم له من أفراد عائلته الصغيرة على قيد الحياة سوى نجله الوحيد ياشوانت .

إنتابه الذهول الشديد بعدما حلق شعر رأسه و بدا مثل فاكير حيث سرعان ما ناداه أتباعه "بابا صاحب أمبيدكار" .

ما إن إندلعت الحرب العالمية الثانية صيف عام ١٩٣٩م حتى أعلنت حكومة الهند البريطانية الحرب ضد المانيا ، لكن حزب المؤتمر عارض قرارها جملة و تفصيلا عكس د/ أمبيدكار الذي كان متحمسا له حيث أيده تأييدا عمليا عبر دعوته شباب المنبوذين إلى الإلتحاق بالجيش البريطاني و القتال في صفوفه خلال الحرب ما دفع البريطانيين إلى فتح أبواب التجنيد الإلزامي و التطوعي أمامهم تحقيقا لمصالحهم الخاصة .

في شهر يوليو من عام ١٩٤١م شكل نائب ملك بريطانيا في الهند هيئة الدفاع الإستشارية حيث كان عضوا أساسيا فيها ، إلا أنه إحتج على عدم عضوا واحدا من المنبوذين في مجلس الدفاع المركزي فسرعان ما عينه نائب الملك عضوا فيه أيضا فضلا عن تعيينه وزيرا للعمل في الحكومة المركزية حيث قدم ٩% من التحفظات المأخوذة على مواقف وزاراتها حيال توظيف المنبوذين بدوائرها و مؤسساتها الإدارية و المالية .

و ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥م قررت الحكومة البريطانية الجديدة برئاسة رئيس الوزراء أتلي منح الهند إستقلالها بعد تقسيمها إلى دولتين هما الهند و باكستان ، فحصلت على إستقلالها عن بريطانيا في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٤٧م و أصبح جوهرلال نهرو أول رئيس لحكومتها المستقلة حيث أقنع د/ أمبيدكار بالإلتحاق بحكومته و تعيينه وزيرا للشئون القانونية .

كانت الهند بحاجة إلى دستور جديد يحل محل سابقها و ينظم أمور البلاد و العباد بعد الإستقلال ، فوضع أمر صياغته و تشكيل بنوده تحت تصرف مقرره د/ راجيندرا براساد الذي شكل لجنة صياغة الدستور بأمر من رئيس الوزراء نهرو و تعيينه د/ أمبيدكار رئيسا لها لإطلاعه الواسع و خبرته العميقة بالدساتير المعمول بها في أنحاء العالم ، فقبل الأخير هذا التحدي حيث عمل ١٨ ساعة في اليوم بجد دون كلل أو ملل في صياغته طوال ستة أشهر إلى أن إنتهى من وضع مسودته الأولية و عرضها على د/ براساد و بقية أعضاء اللجنة الذين أطلعوا عليها و أشادوا بحكمته الرصينة و جهده المبذول في صياغتها حيث شمل بنود هذا الدستور بشكل

مـــذهل أطيـــاف الشـــعب الهنـــدي بكافـــة مناطقـــه و طوائفـــه و مذاهبه و أعراقه و طبقاته و أديانه و لغاته و ثقافاته المتعددة .

و فـــي الســـادس و العشـــرين مـــن ينـــاير عـــام ١٩٥٠م تـــم الإســـتفتاء علـــى دســـتور الهنـــد الـــذي وضـــعه د/ أمبيـــدكار و الموافقـــة عليـــه بأغلبيـــة ســـاحقة ، لكـــن العمـــل المضـــني و الضـــغوطات و التـــوتر النـــابع منـــه الـــذي قضـــاه فـــي الـــوزارة أدى إلـــى تـــدهور صـــحته و إصـــابته بمـــرض الســـكر ، ممـــا دفعـــه إلـــى الإنتقـــال إلـــى مستشـــفى مفلانكـــار فـــي بومبـــاي تحـــت إشـــراف الطبيبـــة شـــاردا كبيـــر التـــي تولـــت رعايتـــه و معالجتـــه الشخصـــية هنـــاك ، فوقـــع كلاهمـــا فـــي حـــب أفلاطـــوني عميـــق بينهمـــا و تزوجـــا لاحقـــا بعـــدما ســـاهمت رعايتهـــا المتفانيـــة فـــي تحســـن صـــحته و شـــفائه تمامـــا مـــن المـــرض في زمن قياسي .

بعـــد ذلـــك ، قـــام بصـــياغة القـــانون المـــدني الهندوســـي بغيـــة إصـــلاح المجتمـــع الهندوســـي فـــي الهنـــد مـــن آفاتـــه الطبقيـــة حيـــث حظـــي بتأييـــد رئـــيس الـــوزراء جـــوهرلال نهـــرو و ســـاروجين نايـــدو و معارضـــة د/ راجيـــندرا براســـاد و ســـردار باتيـــل و مالفيـــا و شـــياما براســـاد مـــوكيرچي ، فأصـــيب بخيبـــة أمـــل مـــن موقـــف الأغلبيـــة الـــرافض لـــه و غـــادر الهنـــد مـــع زوجتـــه إلـــى عاصـــمة ســـيريلانكا كولمبـــو لحضـــور المـــؤتمر البـــوذي حيـــث أعلـــن إعتناقـــه البوذيـــة

خـــلال كلمتـــه التـــي ألقاهـــا هنـــاك ، و عـــاد إلـــى بومبـــاي مجـــددا و هـــو يعتمـــر علـــى رأســـه قلنســـوة خاصـــة بالرهبـــان البـــوذيين ثـــم أعلـــن إستقالته من منصبه الوزاري في الحكومة .

و فـــي الرابـــع عشـــر مـــن أكتـــوبر عـــام ١٩٥٦م وصـــل إلـــى نـــاجبور لحضـــور إحتفـــال رســـمي بإعتناقـــه البوذيـــة وســـط حشـــد مـــن أفـــراد عائلتـــه و آلاف مؤلفـــة مـــن أنصـــاره حيـــث ألقـــى كلمـــة مرتجلـــة أمـــامهم بهـــذه المناســـبة (أنـــا ولـــدت هندوســـيا و لـــم يكـــن فـــي مقـــدوري آنـــذاك أن أبدلـــه بـــدين آخـــر ، لكنـــي الآن أوكـــد لكـــم بأني لن أموت هندوسيا) .

تقـــدم بـــه العمـــر و وهـــن جســـده و عظمـــه و إســـتبد بـــه المـــرض بعـــد حيـــاة حافلـــة بالمعـــارك و الكفـــاح الخاســـرة رغـــم مـــا بذلتـــه زوجتـــه الطبيبـــة شـــاردا كبيـــر فـــي معالجتـــه و تحســـين وضـــعه الصـــحي المتـــدهور قـــدر المســـتطاع دون أن يمنعـــه ذلـــك عـــن مواصـــلة كتاباتـــه عـــن البوذيـــة و قواعـــدها الدينيـــة و زيـــارة مراكـــز الحـــج البـــوذي و العـــودة منهـــا إلـــى دلهـــي فـــي الثلاثـــين مـــن نـــوفمبر عـــام ١٩٥٦م و أخـــذ مكانـــه فـــي شـــرف إســـتقبال زعـــيم التبـــت الروحـــي الـــدالاي لامـــا بعـــد ســـقوط وطنـــه بيـــد القـــوات الصـــينية فـــي الثـــاني من ديسمبر عام ١٩٥٦م .

و في الرابع من ديسمبر من العام نفسه زار راجيا سابها ، و في مساء اليوم التالي طلب بعض الأوراق عند الساعة الحادية عشرة و الربع حيث رغب في قراءتهن الليلة ، و في السادس من ديسمبر عام ١٩٥٦م عندما حاولت زوجته الطبيبة شاردا إيقاظه أصابها الذعر بعدما وجدته ميتا أمامها ، فنقل جثمانه المسجى جوا من مطار بالام الدولي في دلهي إلى بومباي .

في صباح اليوم التالي ، شيع جثمانه المسجى إلى مثواه الأخير في بادار وسط حشد من المشيعين تجاوز المليون شخص من أنصاره و مريديه و أحبائه الأعزاء .

و بهذا تنتهي قصة إبن الهند البار دون أن تمحى من ذاكرة أبنائه ما قدمه من أعمال جليلة خدم بها بلادهم و على رأسها دستورها العظيم الفريد من نوعه ، لقد كان حقا مسيح المنبوذين و الطبقات الدنيا و المضطهدين في وطنه على مر العصور .

(النهاية)